دور الطريقة الرحمانية في المقاومة الشعبية بالجنوب الشرقي الجزائري

د.هوارية بكاي

جامعة ابي بكر بلقايد– تلمسان

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

الملخص

يعالج هذا الموضوع الموسوم بـ : « دور الزاوية الرحمانية في المقاومة الشعبية بالجنوب الشرقي الجزائري.» بالبحث والدراسة دور الطريقة الرحمانية من خلال بعض الزوايا التي تفرعت عنها والتي أخذناها كنماذج في المقاومة الشعبية المسلحة بالجنوب الشرقي الجزائري مشاركة ودعما ،وهذه الزوايا هي: الزاوية العزوزية بطولقة ،الزاوية المختارية بأولاد جلال ، الزاوية القاسمية ببوسعادة ،الزاوية الحافظية بخنقة سيدي ناجي ببسكرة.

الكلمات المفتاحية: الطريقة الرحمانية – المقاومة الشعبية – الجنوب الشرقي ــ الزاوية القاسمية ــ خنقة سيدي ناجي.

Résumé:

Ce sujet sous l'intitulé « Le rôle de la Zaouia Er-rahmania dans la résistance populaire au sud-est de l'Algérie », traite avec la recherche et l'étude le rôle Zaouia Er-rahmania dans le déclenchement et le soutien de la résistance à la zone de sud-est a travers le rôle dérivation des Zaouiates : EL-AZOUZIA à Tolga ,EL-MOKHTARIA à Aoulad-djèlal ,EL-KASSIMIA à BOUSAÂDA ,et EL-HAFIDIA à Khankat sidi Nadji à Biskra.

Mots clefs : Er-rahmania - la Résistance populaire - la zone de sud-est - la Zaouia el-Kassimia - Khankat sidi Nadji.

مقدمة:

تعتبر الجزائر من أهم مراكز الطرق الصوفية في العالم الاسلامي ،إذ كانت من أوائل الدول التي عرفت هذه الظاهرة خاصة بعدما أسس القطب أبي مدين الغوث طريقته المدينية بمدينة بجاية خلال القرن السادس الهجري 1،والتي تزامنت مع ظهور الطريقة القادرية 2 ببغداد والتي يعتبرها الكثير من المختصين في هذا المجال أول طريقة صوفية عرفها العالم الاسلامي.

كما كانت الجزائر مهدا لطرق صوفية جديدة انتشرت منها إلى الأقاليم الأخرى من العالم الاسلامي كالطريقة اليوسفية 3 والتيجانية 4 والرحمانية وغيرها. ورغم أن هذه الطرق قد اختلفت مبادئها ومناهجها ومواقفها وآرائها وتوجهاتها ،إلا أن كثيرا منها اجتمعت على مبدأ مقاومة الاحتلال الفرنسي وتطهير البلاد منه ،منتهجة في ذلك وسائل وسبل عديدة ،التربوية منها والتوعوية والمسلحة.

وقد برز من شيوخ وأتباع هذه الطرق رجال حملوا على عاتقهم مسؤولية المقاومة والدفاع عن أرضهم وعرضهم كالأمير عبد القادر ومحمد الأمجد الشريف بوبغلة ،ولالة فاطمة أنسومر ،وأولاد سيد الشيخ ،والشريف محمد بن عبد الله ،والشيخ المقراني والشيخ الحداد ،وبناصر بن شهرة 5 ،وغيرهم .

ومن أبرز هذه الطرق وأوسعها انتشارا الطريقة الرحمانية التي استطاعت الصمود والثبات وسط العديد من الطرق الصوفية التي عرفتها الجزائر غبر تاريخها الطويل ،والتي كان لها الدور الكبير في التصدي للظلم والاستبداد في الجزائر ومقاومته. فما هي أصول هذه الطريقة؟ وما هي فروعها؟ وما هو موقفها من الاحتلال الفرنسي للجزائر؟ وإلى أي مدى ساهمت هذه الطريقة في التصدي له خاصة في الجنوب الشرقي؟ ومن هم أشهر أتباعها الذين ثاروا ضد الاحتلال الغاشم وقاوموه في هذه المنطقة؟

أولا: مؤسس الطريقة الرحمانية (الخلوتية) 6.

تأسست الطريقة الرحمانية في الجزائر أواخر القرن الثالث عشر الهجري على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف بن أبي القاسم بن علي بن ابراهيم الذي يصل نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،والذي اشتهر باسم محمد بن عبد الرحمن القشطولي 7 الجرجري 8 الزواوي 9 الأزهري 10 ،ومن اسمه – عبد الرحمن – أخذت الطريقة تسميتها.

ولد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بمنطقة آيت اسماعيل الواقعة بفروحة على بعد 15 كيلومتر شرقي مدينة ذراع الميزان .تلقى تعليمه الأولي بزاوية الشيخ ابن أعراب بقرية آيت ايراثن ،انتقل بعدها إلى جامع الأزهر اين أخذ عن شيوخ التصوف من أمثال محمد بن سالم الحفناوي الذي لقنه أصول الطريقة الخلوتية 11 ثم أرسله إلى بلاد الهند والسودان 12 لنشر تعاليمها ،وبعد غياب دام حوالي ثلاثين سنة عاد الشيخ عبد الرحمن الأزهري إلى الجزائر عام 1770م13 لنشر الطريقة الخلوتية بايعاز من الشيخ الحفناوي. فمكث بمدينة بجاية بعض الوقت مرشدا وواعظا بمسجد سيدي أمحمد أمقران ،ثم انتقل إلى آيت اسماعيل بزواوة التي أقام بها فترة يدعو إلى طريقته وقد تزايد الاقبال عليه ،ومن بين الذين أخذوا عنه الشيخ أحمد التيجاني.14

بآيت اسماعيل ذاع صيت الشيخ عبد الرحمن وتزايد طلبته ومريدوه وهو الأمر الذي لم يرق الكثير من الفقهاء الذين حقدوا عليه ودسوا الكثير من المكائد ،ومن بين الذين أظهروا عداءهم وتصدروا لذلك أولاد قاسي بتامدة ،وزعموم بقشطولة وسيدي الجودي وبن علي الشريف بأيلولة والصومام ،الأمر الذي دفعه إلى مغادرة المنطقة نحو مدينة

الجزائر التي نزل بحي الحامة منها أين شرع ينشر تعاليم طريقته ،وابتنى زاوية له على قطعة أرض أهدتها له قبيلة بن عيسى ،ولم يمض نصف عام حتى التف حوله جمع غفير من الطلبة والمريدين.15

أظهر الشيخ عبد الرحمن الأزهري تفوقا ونبوغا علميا في جميع العلوم الشرعية فتزايد توافد طلاب العلم عليه ،ولما كان الكثير منهم قد أقبل عليه تاركا زوايا أخرى 16 ثار ضده شيوخها وأثاروا الناس وحرضوهم عليه بعد أن اتهموه بالابتداع والخروج عن تعاليم الدين 17 الأمر الذي اضطره إلى المغادرة نحو مسقط رأسه آيت اسماعيل بجرجرة اين أسس زاوية جديدة لم يقم فيها طويلا إذ توفي عام 1208هـ / 1793م ،ودفن بهذه الزاوية لكن أتباعه ومريديه من مدينة الجزائر نقلوا جثمانه منها إلى زاويته بالحامة ودفنوه بها ،لذلك أصبح يعرف بسيدي عبد الرحمن بو قبرين.18

بعد وفاة الشيخ عبد الرحمن خلفه على رئاسة الزاوية الرحمانية الشيخ علي بن عيسى المغربي الذي كان شيخه الأزهري قد ترك له جميع كتبه ورسائله 19 وأرضه وأوقاف الزاوية قبل وفاته وأشهد أهل آيت اسماعيل على ذلك ،وقد استمر الشيخ علي بن عيسى يدير الزاوية الرحمانية تعليما وطريقة مدة ثلاثة وأربعين سنة.20

ثانيا: دور الطريقة الرحمانية في مقاومة الاحتلال.

تعد الطريقة الرحمانية أقوى الطرق الصوفية في الجزائر ،وأكثرها توسعا ونشاطا 21 وذلك استنادا إلى تقارير وإحصاءات قدمها المكتب العربي بناحية قسنطينة سنة 1849م ،حيث ذكر أن عدد مريديها يقدر بثلاثة آلاف شخص من مجموع ستة آلاف وأربعمائة وخمسون مريد من الطرق الأخرى 22 ،ليصل عدد مريدها سنة 1930م إلى خمسة عشر ألف وستمائة وعشرون شخصا موزعين على مائة وسبعة وسبعين زاوية يؤطرهم ثلاثة وعشرون مؤطر ،ومن أهم مراكزها نذكر زاوية الحامة ،وزاوية آيت اسماعيل ،وزاوية صدوق بنواحي سطيف ،وزاوية البرج بالقرب من طولقة وزاوية أولاد جلال ،وزاوية خنقة سيدي ناجي.23

وكما ذكرنا سابقا فإن الطريقة الرحمانية قد ساهمت بشكل فعال في مقاومة الاحتلال الفرنسي بشتى السبل والوسائل شأنها في ذلك شأن الكثير من الطرق الصوفية ،سواء بتعبئة الأهالي وتوعيتهم للتصدي للبدع والخرافات التي ما فتئ الاستعمار الفرنسي على اشاعتها في أوساط المجتمع الجزائري ،أو من خلال مساندتها للانتفاضات والثورات الشعبية التي قادها زعماء ينتسبون إلى طرق أخرى كمقاومة الأمير عبد القادر الذي كان أحد أقطاب الطريقة القادرية ،وثورة الشريف محمد بن عبد الله المعروف بالشريف بومعزة من أتباع الطيبية24 ،وثورة الشيخ الناصر بن شهرة من أتباع الطريقة القادرية والذي لقي كل الدعم والمساندة من طرف مقدم الطريقة الرحمانية بنفطة جنوب غرب تونس مصطفى بن محمد بن عزوز الذي فتح زاويته أيضا للعديد من أبطال المقاومة الجزائرية ومن بينهم الأمير محيي الدين بن الأمير عبد القادر وأولاد مصطفى بن عمران الشعانبي السوفي.25 أو من خلال الثورات التي تزعمها رجال الطريقة الرحمانية كثورة المقراني التي تزعمها روحيا الشيخ الحداد 26 والثورة الحاج عمر القائم على زاوية الشيخ أمحمد بن عبد الرحمن بذراع الميزان وصهر الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول للشيخ عبد الرحمن الأزهري 27 ،وثورة القبائل التي تزعمها الشريف بوبغلة ولالة فاطمة أنسومر.28 وثورة الصادق بن الحاج بمنطقة الأوراس.29

ثالثا: دور الطريقة الرحمانية في المقاومة بالجنوب الشرقي من خلال بعض النماذج:

يعود الفضل في ظهور الطريقة الرحمانية بالجنوب الشرقي الجزائري إلى الشيخ محمد بن عزوز البرجي 30 – تلميذ مؤسس الطريقة الرحمانية الشيخ عبد الرحمن الأزهري – الذي أسس زاوية بقرية البرج على مبادئ الطريقة الرحمانية التي لقنها للعديد من طلابه ومريديه ،والذين من أبرزهم علي بن عمر وعبد الحفيظ الخنقي وعلي بن جروني والصادق بن حاج ومختار الجلالي 31 ،والذين أسسوا بدورهم زوايا خاصة بهم على الطريقة الرحمانية 32 ،وهي الزوايا التي كان لها

دور كبير في مقاومة الاحتلال الفرنسي بالمنطقة ،والتي اخترنا منها بعض النماذج لتكون شاهدة على دور الطريقة الرحمانية في التصدي للاحتلال الفرنسي بالجنوب الشرقي من وطننا الحبيب.

1- دور آل بن عزوز بطولقة:

هي الأسرة التي ينحدر منها الشيخ محمد بن عزوز مؤسس الزاوية العزوزية ،والتي استقرت بمنطقة البرج بالقرب من طولقة قادمة من المغرب الأقصى ،وقد حظيت باحترام كبير من طرف سكان المنطقة التي اصبحت تعرف باسمهم فيقال برج بن عزوز .33

وحسب علي رضا الحسيني فإن آل بن عزوز كانوا العدو الأول لسلطات الاحتلال الفرنسي بالجنوب الجزائري ،فقد شاركوا في مقاومة الأمير عبد القادر وكان الحسن ابن الشيخ محمد بن عزوز خليفة للأمير عبد القادر بمنطقة الزيبان ،وكان لهم دور كبير في مقاومة المحتل الأمر الذي دفع بالسلطات الاستعمارية إلى غلق الزاوية العزوزية ومصادرة أملاكها ومنع الزيارة إليها.34 وقد قامت السلطات الاستعمارية ببيع أملاك الزاوية من أراض وزروع في المزاد العلني ،لكن الله قد قيض لها الشيخين علي بن عثمان الطولقي ومحمد بن أبي القاسم الهاملي فاشتريا هذه الممتلكات وأرجعاها إلى الزاوية ،وقدر ثمن الأراضي بنخيلها بآلاف الدنانير.35

دفع هذا التضييق الذي فرضته السلطات الاستعمارية على عائلة بن عزوز بأفرادها إلى اللجوء إلى تونس حيث استقروا بمنطقة نفطة أين أسسوا زاوية جديدة كان رئيسها الشيخ مصطفى بن عزوز واصلت العمل الذي كانت تقوم به الزاوية الأم بالبرج ،كما واصلت عملها الجهادي بدعم قادة المقاومة والمجاهدين اللاجئين ألى تونس وإيوائهم ،ومن اشهرهم الشيخ الشريف بن عبد الله والشيخ بن ناصر بن شهرة والأمير محيي الدين بن الأمير عبد القادر الشيخ سليمان بن جلاب سلطان تقرت السابق والشيخ ابراهيم بن عبد الله مقدم الطريقة القادرية بورقلة ومحمد بن عشابي البسكري ،كما كانت هذه الزاوية مقرا لاجتماع الشخصيات السابقة الذكر والذي كان من اجل التحضير للمقاومة المسلحة التي قادها الأمير عبد القادر وبن ناصر بن شهرة والتي امتدت عبر الجنوب الشرقي وامتدت إلى تبسة سنة ما بين عامي 1870م و1871م.36

وقد استمر السلطات الاستعمارية في متابعة أفراد أسرة بن عزوز حتى بعد هجرتها إلى تونس ،وضيقت عليها هناك ،خاصة زاوية ونفطة التي كثيرا ما حذرت هذه السلطات من أخطارها على الشعب الجزائري .37

2- دور الزاوية المختارية بأولاد جلال.

أسسها الشيخ مختار الجلالي حوالي عام 1815م /1230هـ بأولاد جلال ببسكرة ،عم نفوذها منطقة أولاد نايل وامتد حتى الشمال ليصل إلى مدينة الجزائر وبلاد القبائل.38 تبنى رئيسها عبد الرحمن الجلالي قضية المقاومة ضد الاحتلال ونسق جهوده مع الشريف بومعزة الذي ظهر بالمنطقة سنة 1846م. إذ عملا معا على تعبئة السكان مستعينين بمريديهما الذين كانوا على استعداد ليكونوا في مقدمة المواجهة ،ولما وصل خبر هذه التحركات مسامع السلطات الاستعمارية أرسلت قواته المتمركزة بمدينة باتنة بقيادة الجنرال هيربيون الذي التقت قواته بقوات المجاهدين المقاومين في شتاء 1847م بمنطقة أولاد جلال أين دارت بينهما معركة دامت يوما كاملا انتهت بانتصار القوات الفرنسية التي قتل ثلاثين شخصا من أفرادها من بينهم الرائد بيلان بعدما قتلت هذه القوات تسعين مجاهدا استشهدوا في سبيل الله ،وبعد هذه الهزيمة قام الجنرال هيربيون بقصف الزاوية المختارية ،لكن ذلك لم يمنع مريديها وأتباعها من مواصلة المقاومة من خلال مشاركتهم في ثورة الزعاطشة 1848-1849م39،وانتفاضة الجلفة سنة 1851م.40

من تلامذتها الشيخ بالأحرش الذي قام بهجوم على المؤسسات الفرنسية المحيطة بمنطقة القبائل سنة 1846م ،وكان في اتصال دائم بالمقاوم بودالي من قبيلة توفنت من اجل تعميم الثورة ضد القوات الاستعمارية.41

3– دور الزاوية القاسمية (بوسعادة).

أسسها الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي بالهامل قرب بوسعادة عام 1830 42 تعتبر أنموذجا بارزا في المقاومة الفكرية والثقافية ضد سياسة التغريب ومحو الشخصية الوطنية التي مارسها الاستعمار الفرنسي في الجزائر حيث كانت معقل العروبة والإسلام على حد تعبير الشيخ أحمد توفيق المدني 43 قال عنها جاك بيرك بأنها عملت بكل عزم على استنهاض القيم الروحية والاجتماعية التي تعد ملجأ كل الناس.44 وقد أورد الدكتور عبد المنعم قاسمي قولا للباحثة الأمريكية جوليا كينسي سميث يدل على هذا جاء فيه: « إن إستراتيجية الشيخ محمد بن أبي القاسم في المقاومة والبقاء وإستراتيجية خليفته وابنته لالة زينب لم تكن قطيعة كاملة مع الماضي ،إنما طريقة تغيير سياسي نتج عن تقييم دقيق وواقعي لآفاق النشاط السياسي والاجتماعي ،مبنية على قراءة اسباب فشل الخطط والمناهج التي سبقته ،ففي حرب الهوية مسلحة كانت ام لا ،كونت المقاومة الثقافية دفاعا اقوى من جميع الثورات.»45

كما سعت الزاوية القاسمية إلى توحيد المقاومة الشعبية من خلال ربط الاتصالات بين زعمائها داخل الوطن وخارجه ،وتمتين الروابط والعلاقات بينهم من أمثال الشيخ الحداد والمقراني وبوعزيز الماضوي سواء عن طريق المراسلات أو الاتصال المباشر ،واعتبرت ذلك من مبادئه والأسس التي قامت عليها.46

ويذكر الأستاذ عبد المنعم قاسمي أن علاقات قوية ربطت الشيخ محمد بن أبي القاسم بزعماء المقاومة وعائلاتهم سواء أولئك الذين قضوا في الجزائر كالشيخ الحداد والمقراني أو أولئك الذين أجبروا على مغادرتها كالأمير عبد القادر والشيخ مصطفى بن عزوز مؤسس زاوية نفطة ،ولا تزال رسائلهم ورسائل عائلاتهم للشيخ ولخلفائه محفوظة بالزاوية ،وقد دفعت هذه العلاقات بالسلطات الفرنسية إلى مراقبته ومراقبة نشاط زاويته خاصة بعدما حذرت بعض التقارير الاستخباراتية من إمكانية تزعمه لثورة ضدهم كتلك التي تزعمها الشيخ الحداد ،ومن بينها التقرير المؤرخ في 30 جانفي 1882م الذي يخبر أن نفوذ الشيخ محمد بن ابي القاسم يمتد إلى سوق أهراس وباتنة وتبسة وبسكرة ،وله علاقات سرية مع شيخ زاوية تلاغمة علي بن خليفة ،ويفكر في تنظيم انتفاضة في كل المناطق المجاورة ،وحث هذا التقرير على ضرورة مراقبته وأخذ الحيطة والحذر من تحركاته. وظل الشيخ محمد بن أبي القاسم مصدر قلق للسلطات الاستعمارية التي ظلت تخشاه وتخشى تحركاته ،واستمرت في مراقبته إلى آخر يوم من حياته .47

4– دور الزاوية الحافظية بخنقة سيدي ناجي (بسكرة).

أسسها الشيخ عبد الحفيظ الخنقي تلميذ الشيخ محمد بن عزوز البرجي بعدما أعاد احياء زاوية جده الشيخ أحمد بن محمد الوانجلي الهجرسي ،وعمل على نشر الطريقة الرحمانية وكان ذلك حوالي القرن الثالث عشر هجري. 48

أصبحت الزاوية الحافظية بخنقة سيدي ناجي مقصدا لطلاب العلم ومركزا للدعوة للجهاد ،ومن الذين تخرجوا منها الشيخ الصادق بن الحاج الذي أسس زاوية بأحمر خدو بزريبة الوادي من بسكرة ،والتي كان لها دورا كبيرا في مقاومة الاحتلال الفرنسي ،إذ خاض شيخها الصادق بن الحاج معارك مشهورة من بينها معركة مشوش ومعركة هنقلين ،كما ساندت هذه الزاوية ثورة الزعاطشة عام 1849م ودعمتها ،وفي سنة 1859م قام الشيخ الصادق بثورة في الأوراس امتدت إلى سيدي عقبة ومنعة ودعى المرابطين إلى الانضمام إليه ،وانتهت هذه الثورة بأسر الشيخ وأبنائه وأزيد من ثمانين مجاهدا من أتباعه ،وحرق الزاوية عن آخرها من طرف الجنرال بيجو ،وتوفي الشيخ الصادق بن الحاج في سجن الحراش سنة 1869م.49

أما الزاوية الأم – الزاوية الحافظية – فقد شارك طلابها وأتباعها ومريدوها في مقاومة الزعاطشة 1849م 50،استجابة لنداء الشيخ بوزيان الذي وجهه لشيوخ الطريقة الرحمانية بمنطقة الزيبان ،حيث أعلن الشيخ عبد الحفيظ الخنقي الثورة على المحتل الغاشم وألف جيشا من أهل الخنقة والقرى المجاورة لها ،ونسق جهوده مع الشيخ الصادق بن الحاج من أحمر خدو ،وبعدما اجتمع لهما الأهالي من مختلف القرى والقبائل بالمنطقة زحفت هذه القوات تحت قيادة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي لنصرة الزعاطشة ،فقطعوا في بداية الأمر طريق الامدادات عن القوات الاستعمارية ،ثم تحركوا لفك الحصار عن الواحة ،وقد نزل الشيخ عبد الحفيظ الخنقي عند واد براز قرب سيدي عقبة وقد تزايد عدد قواته نظرا لانضمام العديد من الرجال من المناطق التي كان يمر بها جيشه إلى صفوفه حتى بلغ عددها خمسة آلاف مجاهد في سبيل الله.51

وبينما كان الشيخ عبد الحفيظ الخنقي يستعد لتقديم العون لأهل الزعاطشة إذ بقوات الاحتلال الفرنسي تحاصرهم ليلا تحت قيادة سان جرمان الذي علم بتحرك قوات الشيخ عبد الحفيظ الخنقي بعد وشاية وصلته من بن شنوف شيخ سيدي عقبة ،فحشد قواته وطلب المدد من القوات الموجودة بباتنة ،وقبل بزوغ الفجر كانت القوات الفرنسية قد أحكمت حصارها على الشيخ عبد الحفيظ الخنقي وقواته. 52 ومع مطلع الفجر دخل الطرفان في اشتباكات معلنة عن بداية معركة واد براز التي استمرت حتى السادسة مساءا بعد أن أصدر الشيخ عبد الحفيظ الخنقي أمره لقواته بالانسحاب إلى الجبال المجاورة مخلفا وراءه أكثر من مائتي شهيد.53

لم يكن هدف الشيخ عبد الحفيظ الخنقي الدخول في معركة مع القوات الفرنسية وإنما أجبر عليها لكن هدفه الأساسي كان فك الحصار عن واحة الزعاطشة ،لذلك ما كاد يستجمع قواه حتى نسق مع الشيخين الصادق بن الحاج ومحمد الصغير بن حاج الذين اجتمعوا يوم 4 نوفمبر 1849م ،واستطاعوا جمع أزيد من ألفي مجاهد وعزموا على استرجاع بسكرة وفك الحصار عن واحة الزعاطشة .54 لكن ذلك لم يتحقق لأن الواحة سقطت في يد القوات الاستعمارية ،والشيخ عبد الحفيظ الخنقي لم يلبث أن توفي.55

وفي ختام هذا البحث ومن خلال هذه النماذج من دور الزوايا الرحمانية في مقاومة الاحتلال الفرنسي بالجنوب الشرقي يمكننا القول أن الطرق الصوفية كان لها الدور الكبير في المقاومة الشعبية المسلحة للاحتلال الفرنسي ،فالمقاومة التي لم تشعل إحدى هذه الطرق أو الزاويا التابعة لها فتيلها تزعمها رجال تخرجوا من رحابها ،فالأمير عبد القادر أحد أقطاب الطريقة القادرية والشيخ بوزيان تخرج من الزاوية الطيبية والشريف بوبغلة ولالة فاطمة انسومر من أتباع الطريقة الرحمانية ،وكان الشيخ الحداد من الطريقة الرحمانية قد دعا إلى الثورة ضد الاحتلال والتي تزعمها المقرانيون .وكانت الزاوية الرحمانية احدى حلقات المقاومة التي تبنتها الطرق الصوفية في الجزائر ،وهي طريقة لم يكن الهدف من قيادتها للمقاومة ذاتيا أي ليس بغرض خدمة مصالحها ونشر مبادئها وإنما ثارت ضد المحتل الغاصب من أجل رده عن الجزائر ورفع الظلم عن الشعب الجزائري ،ويتضح ذلك من خلال دعمها لمقاومات قادها رجال على مبادئ الطرق الأخرى دون تعصب كدعمها لمقاومة الأمير عبد القادر والشيخ بوزيان ،والشريف محمد بن عبد الله والشريف بوشوشة والأمير محيي الدين بن الأمير عبد القادر ،وبن ناصر بن شهرة ،وأولاد سيد الشيخ وغيرهم .

كما أن الطريقة الرحمانية قاومت الاحتلال وتصدت لسياسة التجهيل التي انتهجها تجاه الشعب الجزائري ،ولكل محاولاته في طمس الهوية الوطنية أي أنها قاومت الاحتلال عسكريا وفكريا ،كما وجد فيها الشعب الجزائري الدعم الروحي والسند المعنوي للثورة ضد الاحتلال من خلال منحها إياه الرخصة الشرعية للمقاومة في ظل ارتفاع أصوات تحرم القيام ضد الحكومة الفرنسية ووجوب الرضوخ للأمر الواقع والرضى بحكم الأجنبي .

هذا المحتل الأجنبي الغاصب الذي أدرك خطورة الطرق الصوفية على وجوده في الجزائر وعلى مخططاته الاستعمارية بها فعمل على التضييق عليها ماديا من خلال أسر مشايخا وأتباعها ،ومصادرة أملاكها ،وتدميرها في الكثير من الأحيان ،والتضييق عليها معنويا من خلال اتهامها بالزندقة والخروج عن الدين الصحيح والعقيدة السليمة عن طريق أفراد من الشعب الجزائري الكثير منهم من ذوي النفوذ والجاه والمكانة العلمية والدينية في أوساط هذا الشعب ،لكن خاب الاستعمار وخابت مساعيه وخاب معاونوه ،فلا هو حقق أهدافه ولا أتباعه نالوا رضى الشعب واحترامه – بل لم ينالوا حتى رضا من عينهم ودعموه – فالمقاومة استمرت حلقاتها وظهر من الجزائريين المخلصين من أبنا ء الجنوب العزيز كما في الشمال من حملوا اللواء وتصدوا بكل قوة وحزم للاستعمار ومخططاته ومن بينهم — على سبيل المثال لا الحصر — الشيخ بيوض والشيخ آخموخ والشيخ العربي التبسي والشيخ عبد الحميد بن باديس و ميصالي الحاج ،واستمر التصدي واستمرت الجزائر ولادة إلى أن نالت استقلالها بعد ثورة نوفمبر 1954م والتي كانت آخر حلقات المقاومة الطويلة والمريرة ،ولم يكن يهمها كم تدفع من قوافل الشهداء فلأجل الوطن كل شيء يهون .

الهوامش:

1- ابن قنفد القسنطيني ،أنس الفقير وعز الحقير ،تح أدولف ثور ومحمد الفاسي ،الرباط ،1965 ؛أحمد بن أحمد الغبريني ،عنوان الدراية في من عرف من العلماء ببجاية ،تح عادل نويهض ،دار الثقافة ،بيروت ،1969 ،ص ص 22-32 ؛ابن مريم التلمساني ،البستان في التعريف بالعلماء والأولياء بتلمسان ،تح محمد بن أبي شنب ،المطبعة الثعالبية ،الجزائر ،1908 ،ص 108.

2- تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني بن إبي صالح موسى الحسني المزداد 471هـ/1079م والمتوفى ببغداد سنة 561هـ/1166م ،وهي من أقدم الطرق الصوفية ظهورا في العالم الاسلامي .توجد الزاوية الأم للطريقة ببغداد ،ويعتبر الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي أول من أسس فرعا للطريقة القادرية بالجزائر سنة 1200م .،وتعتبر القادرية الطريقة الأم لمختلف الطرق الصوفية التي جاءت بعدها. ينظر: أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4 ،ط1 ،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1998 ،ص 42،43 ؛عمار هلال الطرق الصوفية ونشر الاسلام والثقافة العربية في غرب افريقيا الصحراء ،منشورات وزارة الثقافة والسياحة ،الجزائر ،1899 ،ص 109.

3- نسبة إلى الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي نسبا والمليانى دارا المتوفى سنة 981هـ. ينظر: ابو القاسم الحفناوي ،تعريف الخلف برجال السلف ،ج2 ،مطبعة بيير فونطانا الشرقية ،الجزائر ،1906 ،ص 234 ؛الحاج صادق ،مليانة ووالیها سیدي أحمد بن یوسف ،دیوان المطبوعات الجامعیة ،الجزائر ،1989.

4- تنسب التيجانية إلى الشيخ أحمد بن مختار بن سالم التيجاني (ت 1230هـ) الذي ولد بعين ماضي بنواحي الأغواط ،وبها تلقى تعليمه وتولى التدريس ،ثم انتقل إلى فاس ،ومنها عاد إلى بوسمغمون وأسس بها الطريقة التيجانية .عنه ينظر: الحفناوي ،تعريف الخلف ،ج2 ،ص 38 ؛جماعة من المستشرقين ،دائرة المعارف الاسلامية ،ج2 ،ترجمة ابراهيم زكي خرشي ،أحمد الشناوي وعبد الحميد يونس ،دار الشعب القاهرة ،(د.ت) ،ص 784.

5- عن هذه المقاومات ينظر: محمد العربي الزبيري ،مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،1972 ؛عبد الرحمن الجيلالي ،تاريخ الجزائر العام ،ج5 ،ط8 ،شركة دار الأمة ،الجزائر ،2007 ؛اسماعيل العربي ،المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ،ط2 ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،1982 ؛أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900 ،ج1 ،طبعة خاصة ،عالم المعرفة ،الجزائر ،2009 ؛العربي منور ،تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر ،دار المعرفة ،الجزائر ،2006 ؛يحي بوعزيز ،ثورة 1971 (دور عائلتي المقراني والحداد) ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،الجزائر ،1975.

6- الطريقة الخلوتية هي أصل الطريقة الرحمانية ،وهي طريقة صوفية شهيرة تفرعت عن الطريقة السهروردية، الأصل فيها احترام الشيخ والخلوة أسسها الشيخ عبد القاهر ضياء الدين السهروردي ،وهي تعد من أهم الطرق في تركيا والأناضول إذ انتشرت بين الصوفية الأكراد والفرس ،والأتراك ،ثم انتشرت في مناطق عديدة من العالم من آسيا وأوربا الشرقية وإفريقيا. ينظر في ذلك: عبد المنعم قاسمي الحسني ،الطريقة الخلوتية الرحمانية:الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العالمية الأولى ،رسالة دكتوراه ،قسم العقائد والأديان ،كليه العلوم الاسلامية ،جامعة الجزائر1 ،2008-2009 ،ص ص 52-67.

7- القشطولي نسبة إلى عرش قشطولة بآيت اسماعيل.

8- الجرجري نسبة إلى جرجرة موطن قبيلته.

9- الزواوي نسبة إلى زواوة من قبيلة كتامة البربرية بجبال جرجرة مابين بجاية ودلس.

10- الأزهري لأنه درس بالأزهر الشريف بالقاهرة.

11- الحفناوي ،تعريف الخلف ،ج2 ،ص 470 ؛عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،ص 239.

12- O. Dupont et X. Copolani ,les confréries religieuses musulmanes ,Alger ,1897 ,p 383.

12- بعد وفاة الشيخ أحمد الصقلي الفاسي تلميذ الشيخ محمد بن سالم الحفناوي والذي كان قد كلفه شيخه بنشر الطريقة بالمغرب الأقصى ،كان الشيخ عبد الرحمن الأزهري بدارفور لنفس الغرض ،غير ان الحفناوي استدعاه لمواصلة مسيرة الصقلي في الجزائر .ينظر في ذلك: دائرة المعارف الاسلامية ،مادة رحمانية ،مج 10 ،ص 80 ؛عبد المنعم قاسمي ،المرجع ،السابق ،ص 226

13- O. Dupont et X. Copolani ,op.cit ,p 383.

13- اختلف المؤرخون في مدة اغتراب الشيخ الأزهري ،حيث جاء في دائرة المعارف الاسلامية أنها دامت ثلاثين سنة ،بينما يذكر أبو القاسم سعد الله –تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4 ،501 – ،والشيخ عبد الرحمن الجيلالي – تاريخ الجزائر العام ،ج4 ،ص 42 – أنها دامت ربع قرن.

14- O. Dupont et X. Copolani ,op.cit ,p 383.

عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،ص 229.

15- يحي بوعزيز ،أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ،ط1 ،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1995 ،ص 143 ؛عبد المنعم قاسم ،المرجع السابق ،ص 229.

16- عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،ص 227 ،228.

17- نصب للشيخ عبد الرحمن الأزهري مجلسا للمحاكمة والنظر في الاتهامات الموجهة إليه ترأسه المفتي الحاج علي بن أمين مفتي المالكية بمدينة الجزائر ،وانتصر فيه الشيخ الأزهري على خصومه وبرئ من تهمة الزندقة التي نسبت إليه ،وأكرم الداي نزله ،واستضافه في قصره أياما يأخذ عنه ورد الطريقة بعدما تأكد من براءته. ينظر في ذلك: الحفناوي ،تعريف الخلف ،ج2 ،ص 159.

18- الحفناوي ،تعريف الخلف ،ج2 ،ص 459 ؛عبد الرحمن الجيلالي ،المرجع السابق ،ج4 ،ص 51.

19- ترك الشيخ عبد الرحمن الأزهري العديد من الرسائل أشهرها:رسالة فتح الباب ،دفتر الدفاتر ،رسالة طي الأنفاس وشرح على الريفاوي وهو مخطوط موجود بمكتبة زاوية بن عزوز القاسمي بعين وسارة ،وزلزلة النفوس وغيرها الذي ذكره الشيخ المكي بن عزوز في رسائله التي حققها ونشرها علي رضا التونسي .ينظر في ذلك: رضا الحسني ،شيخ العلماء و المجاهدين بن عزوز البرجي نور الصحراء حياته وآثاره ،الدار الحسينية ،تونس ،2002 ،ص 131 ؛الحفناوي ،تعريف الخلف ،ج2 ،ص 260.

20- الحفناوي ،تعريف الخلف ،ج2 ،ص 459 ؛ سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4 ،ص 509.

21- L. Rinn ,marabouts et khouans ,etude sur l'islam en Algérie ,Alger ,1884 ,p 456.

21- أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج4 ،ص 132.

22- صالح فركوس ،محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1830-1925) ،مديرية النشر لجامعة قالمة ،الجزائر ،2010 ،ص 92.

23- عبد القادر بو قرين ،جهاد شعبي أم مقاومة قراءة في المرجعيات الفكرية للجهاد ،أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزوايا ابان المقاومة والثورة التحريرية ،وزارة المجاهدين ،الجزائر ،2007 ،ص 100.

24- Augustin Bereau ,essai d'une bibliographie critique de la société de géographie et d'archéologie de la Provence d'Oran ,Oran ,p 136.

25- De Neuveu ,les khouanes ordres religieux chez les musulmans ,Jourdon ,Alger ,1913 ,p 95.

26- عبد الرحمن الجيلالي ،تاريخ الجزائر العام ،ج5 ،ط8 ،دار الأمة ،الجزائر ،2007 ،ص 185.

27- Edmond Doutté ,notes sur l'islam Maghrébin les Marabouts ,1900 ,p76.

28- اسماعيل العربي ،المرجع السابق ،ص 289.

29- يحي بوعزيز ،ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ،ج1 ،ط2 ،المتحف الوطني للمجاهد ،الجزائر ،1996 ،ص ص 151-156.

30- البرجي نسبة لبلدة البرج وهي واحة صغيرة قرب طولقة ،وقد أتم الشيخ محمد بن عزوز تعليمه على يد الشيخ عبد الرحمن باش تارزي أحد طلبة الشيخ عبد الرحمن الأزهري .للمزيد ينظر: كمال عجالي ،الشيخ محمد بن عزوز البرجي ،مجلة الثقافة ،عدد 107-108 ،السنة 20 ،الجزائر ،مارس-افريل 1995 ،ص 155.

31- عن تاسيس الزاوية ودورها ،وأهم تلامذة ومريدي الشيخ محمد بن عزوز ينظر: علي رضا الحسني ،شيخ العلماء والمجاهدين محمد بن عزوز نور الصحراء حياته وآثاره ،الدار الحسينية للكتاب ،تونس ،2001 ،ص 117 ومابعدها.

32- من بين هذه الزوايا: زاوية علي بن عمر بطولقة وزاوية عبد الحفيظ الخنقي بخنقة سيدي ناجي وزاوية المختار بن خليفة بأولاد جلال وزاوية الصادق بن حاج بأحمر خدو وزاوية سيدي سالم بوادي سوف وزاوية مصطفى بن عزوز بنفطة التونسية. عنها ينظر: علي رضا الحسني ،المرجع السابق ،ص 167 ،168.

33- عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،ص 520.

34- علي رضا الحسني ،المرجع السابق ،ص 25.

35- عبد المنعم قاسمي الحسني ،المرجع السايق ،ص 521.

36- أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900 ،ج1 ،طبعة خاصة ،عالم المعرفة ،دار الرائد ،الجزائر ،2009 ،ص ص 116-118 ؛عبد الرحمن الجيلالي ،المرجع السابق ،ج5 ،ص 184 ،185 ؛يحي بوعزيز ،ثورة 1870 ،ص 164 ،165.

37- عبد المنعم قاسمي الحسني ،المرجع السابق ،ص 521.

38- نفس المرجع ،ص 530.

39- أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية ،ج2 ،ط1 ،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1992 ،ص 125 وص 292 ؛عبد الحليم صيد ،أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة ،ط1 ،مطبعة سوف ،الوادي ،الجزائر ،2000 ،ص 55.

40- عبد المنعم قاسمي الحسني ،المرجع السابق ،ص 530.

41- صالح فركوس ،تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال المراحل الكبرى ،دار العلوم ،الجزائر ،2005 ،ص 232 وص 271.

42- عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،ص 532.

43- أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،1977 ،ص 93.

44- مستشرق فرنسي شهير ولد بمنطقة فرندة سنة 1910 عرف عنه تعلقه الشديد بالجزائر .عنه ينظر: عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،هـ 2 ص 533.

45- نفس المرجع ،ص 539.

46- نفسه ،ص 533.

47- توفي الشيخ محمد بن أبي القاسم بتاريخ 27 فيفري 1897م . ينظر: عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،ص 540.

48- أبو القاسم سعد الله ،تجارب في الأدب والرحلة ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1983 ،ص 162.

49- صلاح محمد العقبي الطرق الصوفية بالجزائر تاريخها ونشاطها،ط1 ،دار البصائر ،الجزائر ،2008 ،ص 280 .

50- عبد المنعم قاسمي ،المرجع السابق ،ص 529.

51- واد براز ينبع من مرتفعات شيليا بالأوراس ليصب بالزاب الشرقي وقد وقعت به معركة شهيرة بين المجاهدين الجزائريين بقيادة الشيخ عبد الحفيظ الخنقي و القوات الاستعمارية خريف 1849م .ينظر: الندوة الوطنية معركة واد براز 1849م في ذكراها 160 ،الجمعية الخلدونية للدراسات والأبحاث ،المتحف الجهوي بسكرة ،05 نوفمبر 2009.

52- مياسي ابراهيم ،المقاومة الشعبية ،دار مدني ،الجزائر ،2009 ،ص 65.

53- محمد العربي الزبيري، مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،1972 ،ص60

54- الجمعية الناصرية ،الذكرى المئوية الرابعة لنشأة زاوية خنقة سيدي ناجي 1602-2002م ،دار الهدى ،عين مليلة ،الجزائر ،2002 ،ص 23.

55- بومدين بوزيد ،الطرق الصوفية والاحتلال جدل الرفض والقبول ورمزية صاحب الوقت ،الملتقى الوطني الأول والثاني حول دور الزويا ابان المقاومة والثورة التحريرية ،وزارة المجاهدين ،الجزائر ،2007 ،ص 127